الفصل الخامس

وسائل الإعلام العالمية، هل هي فضاء عالمي عام ؟

يقفز الدور الذي تضطلع به وسائل الإعلام العربية ذات البعد القومي في وقت الأزمات عادة، إلى واجهة الاهتمام والحوارات في الغرب. حينها تخضع التغطية العربية للصراعات والحروب لتمحيص منظم، وتتم دوماً مقارنتها بالتغطية التي تقوم بها وسائل الإعلام الإخبارية الأوروبية والأمريكية. كما يظهر هنا أيضاً "الصدام بين الأصوات" بصفته افتراضاً يتلطى خلف عملية التمحيص التي تهدف إلى تبيان السبب وراء الملامح الخاصة للتغطية الإخبارية في كل واحد من تلك السياقات الثقافية. قمت سابقاً باستعراض الاتهامات المتبادلة بين المهنيين العرب والأمريكان بخصوص تغطية الحرب على العراق، حيث كان الموضوع المركزي هو تعليق أولئك المهنيين على المعلومات – أي التقارير والصور – حول الحرب[1].

obeikandl.com

يُعَـدُّ التفسـير الخاطئ للتغطية التي تقوم بها وسـائل الإعلام عند الطرفـين دليـلاً قويـاً على "الانعكاسـية" المتزايدة في فضـاء وسـائل الإعـلام العالمية، حيث يكرس مهنيو وسـائل الإعلام خلافاتهم المهنية والأخلاقية. كما يشـير إلى وجود فضـاء إعلامي عالمي لا تخضـع فيها فقـط الأحداث للتمحيص الدائم، بـل الطريقة التي تتـم فيها عملية نقلها أيضاً.

تعكس الاتهامات التي يوجهها بعض الصـحفيين الغربيين لوسـائل الإعـلام الإخبارية العربيـة التوتر القائم بين "جماعتـين تأويليتين"[2]. وهكـذا، يمكن أن يؤدي تحليل المنتج الصـحافي الصـادر عن جماعات متعددة إلى تسـليط الضـوء على الاختلاف بين القيـم ووظيفة الأخبار عنـد كل واحدة من هـذه الجماعـات، والكيفية التي تتشـكل بها فكرة "الدخـلاء" في عمليـة الممارسـات المهنية التي تقـوم بها إحدى هذه الجماعـات بالمقارنة بمثيلاتهـا عند الجماعات الأخرى. تسـاعد رؤية الصـحفيين في المؤسسـات الإعلامية العربية، وهؤلاء يشـكلون جماعة تأويلية لها ممارسـاتها الخاصـة بهـا بالمقارنة بالمؤسسـات الإعلامية الأمريكيـة على سـبيل المثـال، في إلقاء الضـوء على الصـراع بين هذه الجماعـات مـن أجـل إعطـاء هويـة ومعنـى لممارسـاتهم الصـحفية ومعاييرهم المهنية.

إضـافة إلى ما تقدم، يمكن القول إن الحوار الدائر بين الصحفيين يشـير إلى قضية الموضـوعية بوصفها سـمة مهمة من سمات المراسل الصـحفي المثالي. فمن الواضح أن مسـألة الموضوعية في هذا السياق

–في تغطية الحرب الدائرة حالياً، على سبيل المثال– لا تتعلق بموضوع الزيف مقابل الدقة (أي فيما إذا كان الصحفيون العرب قد قاموا بنقل الحقيقة، أو زوّروها في تقاريرهم الإخبارية)، بل باحتمال أنه من خلال التركيز على الضحايا العراقيين، فإن بعض وسائل الإعلام العربية يمكن أن توجه إليها اتهامات بتأجيج حدة الصراع بين الشرق والغرب، بدلاً من محاولة إخماده؛ بالرغم من حقيقة أن تلك التقارير كانت تحمل في طياتها تصويراً لبعض ما كان يجري في الواقع. المهم هنا هو مصداقية الصحفيين كمهنيين في قلب منطقة الصراع؛ أو بعبارة أخرى، يمكن القول إن ما يهم في هذا المجال هو "أي" جزء من أجزاء الحقيقة تم إيراده في وسائل الإعلام و"كيف" تمت عملية إيراده. وإذاً، فإن من غير المتوقع أن يكون الصحفي مراقباً تقليدياً، بل "مراقباً مثالياً"[3]. يرى ماثيو كيران أن إحدى السمات المهمة لمثل ذلك المراقب تكمن في إيجاد نوع من التوازن بين كونه حيادياً، وبين كونه في الوقت نفسه، مهتماً بالمشاعر والعواطف الإنسانية؛ ومن ثَمَّ، "متفهماً لتلك الشخصيات من الداخل"[4].

يهدف هذا الفصل إلى مناقشة دور الصحفيين بصفتهم وسطاء وممهدين لما يطلق عليه وصف "الفضاء العام العالمي". تركز المناقشة التالية على دور الصحفيين العرب في هذا الفضاء العالمي الجديد، وحضورهم في فضاء السلطة السائد. تتمثل النقطة المحورية لهذه المناقشة فيما إذا كان هذا الفضاء العالمي الجديد لا يزال يحمل في طياته أفكاراً تتعلق بالمركز في مقابل الأطراف؛ وفيما إذا كان بإمكاننا

الحديث عن ممارسات صحفية سائدة عند تطبيقها على ميدان الصحافة. يلعب ميدان الصحافة دوراً محورياً في تشكيل الفضاء العام الحديث الذي يتمثل بدقة في قدرته على أن يكون منصة تنطلق من على متنها أصوات متنوعة كأساس لإطلاق أحكام منطقية. ولكن بدلاً من استعراض المنطق من خلال معايير عالمية (هابيرماسية) بوصفها حجر الزاوية في الفضاء العالمي (العام)، فإنني أقترح تطبيق رأي بوردو حول المنطق، حيث يَعُدُّه "قانون اللعبة"، الطارئ على الميدان الذي يتموضع فيه. كما سبق لي القول في الفصل الأول من هذا الكتاب، أرى أن رأي بوردو يساعدنا على رؤية الصحفيين بصفتهم فريقاً يقوم بتشكيل "جماعة تأويلية". تتجلى النقاط المحورية في هذه المناقشة في علاقات السلطة والهويات الهجينة التي تتشكل في المشهد الإعلامي العالمي.

يتجلى إطار هذا الفصل على الشكل التالي: أولاً، أقوم بمناقشة الخطوط العامة للفضاء العالمي العام، مركزة على موضوع تدفق المعلومات كشرط أساسي للمشاركة المنطقية في هذا الفضاء. أقوم بعد ذلك بمناقشة دور الصحفيين العرب في تسهيل هذه المشاركة، مركزة خصوصاً على فكرة التهجين، ومتقصية دور الصحافة بصفتها جسراً ثقافياً بين (الآخر) العالمي والذات المحلية. وكما سأبين تالياً، فإن دور الصحفيين كوسطاء في هذا الفضاء العالمي يجب أن يأخذ في الحسبان الطريقة التي يرسمون بها هويتهم، وتأثير هذه الهوية في مسألة الوساطة في الحوارات العامة. وفي محاولة مني لإثبات وجهة نظري،

أقـدم تحليلاً لتغطية الحرب على العراق في أربع من الصـحف العربية المهاجرة ذات البعد القومي من أجل إثبات:

1) الأدوار الهجينة التي يمارسـها الصـحفيون، خصوصـاً في وسـائل الإعلام الهجينة المتمثلة في الصـحافة العربية ذات البعد القومي.

2) كي أتعمق في مناقشـة فكرة الهيمنة في هذا الفضاء العالمي. وسوف يطرح هذا التحليل بتفصيل أكبر في الفصل السادس من هذا الكتاب.

كما سـأبين لاحقاً، فإن الهيمنة ليسـت كما يَعُدُّها الباحثون العرب مسـألة تتعلق بتدفـق المعلومات من المركز باتجاه الأطـراف؛ بل تتجلى في توزع السـلطات بـين اللاعبين في الجماعة الصـحفية العالمية. أؤكد بناء على هذا التحليل، أن النظرة إلى الصحفيين (على امتداد العالم) بوصـفهم جماعة "تأويلية" موحدة، تسـتثني مسألة إبراز الخلافات أو الصراعات فيما بينهم.

الفضاء العالمي العام.. حلبة حوارية

قـام عدد مـن الباحثـين باسـتخدام الفكـرة الهابيرماسـية حول الفضـاء العام كحلبة للتواصـل المديني و"النقاش العقلاني"، ومن ثَمَّ قامـوا بتطويرها كنمـوذج معياري للحياة المدينيـة التي يمكن تطبيقها على المسـتوى العالمي. في الوقت نفسـه، أثارت عولمة وسـائل الاتصـال

الإخبارية جدلاً أكبر صبّ في صالح الفضاء العالمي المشترك. ازدادت وتيرة الإلمام بالأحداث التي وقعت في أماكن بعيدة، كما ازداد حضورها بسبب انتشار القنوات الفضائية التلفزيونية وشبكة الإنترنت. لو أردنا أن نكون أكثر دقة، يمكننا القول إن ما تشير إليه هذه الفكرة هو قدرة وسائل الإعلام الإخبارية على استحضار الأحداث التي تجري في أماكن بعيدة خارج نطاق الحدود المكانية والزمانية لحياة المشاهدين العادية. أصبحت مسألة الحضور، كما يقول جون طومسون[5]، السمة الرئيسة لهذا الفضاء العام الجديد.

تم لاحقاً تبني موضوع الفضاء العام بصفته حلبة للتواصل المديني و "النقاش العقلاني" من قبل عدد من الباحثين، وتطويره "كنموذج معياري لحياة مدينية نموذجية"[6]. يؤكد إنغريد فولكمير على سبيل المثال، وجود فضاء عام عالمي جديد، وأن هذا الفضاء "أصبح فضاء مجتمعياً إضافياً عالمياً يتصف بالوسطية تعززه شبكة الإنترنت بشكل خاص"[7]. تُعَدُّ شبكة الإنترنت في واقع الأمر محركاً عالمياً وتشكل بنية تحتية للنشاطات العامة. يشير ستريت[8] على سبيل المثال، إلى استخدام الإنترنت من قبل الناشطين العالميين من أجل تنظيم مظاهرات في مختلف أنحاء العالم (ناهيك عن استخدام الإنترنت من قبل مجموعات إرهابية عالمية). لكن هارفارد يؤكد من ناحيته أن "عولمة الاقتصاد والحكومات والثقافة لم تترافق بعولمة مشابهة للفضاء العام، وأن صناعة الرأي العام ما زالت ترتبط إلى حد كبير بسوية المؤسسات السياسية الوطنية"[9]. إن ما يجب الاعتراف به هنا هو أن الترابط

المتزايد بين دول العالم، والانتشار السريع للأخبار العالمية بما في ذلك أخبار الحروب والكوارث التي تبثها القنوات الفضائية العالمية، يجب أن يكون له تأثير في الرأي العام في مشرق العالم ومغربه.

تعيد فكرة الفضاء العالمي العام إلى الأجندة قضايا تتعلق بالاتصالات التي تتدفق من "المركز" إلى "الأطراف"، كما أكد ذلك غالتونغ في رؤيته الكلاسيكية لبنية الإمبريالية[10]. كان التركيز حينها يقع على الاعتماد البنيوي المتبادل بين النخبة التي تحتل المركز وبين الأطراف، وهو ما يدفع بالممارسات المؤسساتية باتجاه مثيلاتها في المركز المهيمن، ويؤكد القيم التي يتحلى بها هذا الأخير. ترى عواطف عبد الرحمن[11] أن الثورة في مجال الاتصالات العالمية تخدم مصالح الثقافات المهيمنة التي تحتل المركز، وذلك من خلال نشر قيمها وأساليبها في الوقت الذي تقوم فيه بتهميش ثقافات الأطراف المحلية. من ناحية أخرى، يشير باحثون آخرون[12] إلى صعوبة التواصل بين (المركز) المهيمن و(الأطراف) المهيمن عليها، وهو ما يزيد من صعوبة التدفق البيني أو السببي لهذه القيم.

يُنظر إلى عملية تدفق المعلومات كأساس لازدهار مثل هذا الفضاء العالمي. كما أنه يعني حضور (الآخر) (الأطراف) في فضاء السلطة المهيمنة (المركز). يطرح ثوسو على بساط البحث فكرة التدفق المعاكس، كوسيلة لإعطاء فرصة "للتابع كي يعبر عن رأيه،" وهو يثبت بذلك أن "الحركة ليست باتجاه واحد فقط – أي من الشمال إلى الجنوب"[13]. يرى فولكمار أنه لا يوجد بعد الآن مركز أو أطراف بل

فضاء وسطي يتصف بالاستطرادية التعددية تتحرك ضمنه أنظمة إعلامية "مستقلة استقلالاً ذاتياً" لا يهيمن فيها أي لاعب بعينه "على مجريات اللعبة"[14]. مع ذلك، لا يزال المشهد الإعلامي العالمي حلبة للمنافسة: أي استعراض للقوة، وفي الوقت نفسه استعراض لمقاومة هذه القوة؛ بمعنى آخر، يعرض هذا المشهد لهيمنة المركز، وفي الوقت نفسه، لحركات مقاومة هذه الهيمنة من قبل الأطراف. إن الرأي القائل بأن المشهد الإعلامي العالمي لا يحتوي على "لاعبين مهيمنين"، كما سأؤكد لاحقاً، يستثني موضوع الصراع على السلطة بين الصحفيين (أي مهنيي وسائل الإعلام) من أجل بناء هوياتهم المهنية، وما يتضمنه هذا الصراع من منظور تحديد الاختلاف فيما بينهم.

الصحافة العربية والدولة الحديثة

بدأت الصحافة تلعب دوراً مهماً في تشكيل الفضاء العام الحديث، بالرغم من أن هذا الدور يحمل في طياته بعض التناقض. من ناحية أخرى، يعزو هابيرماس[15] انحسار الفضاء العقلاني العام إلى انتصار الرأسمالية ونشوء وسائل الإعلام الجماهيرية التي تزيد من حدة شرذمة الجماهير التي يتم التعامل معها بصفتها مجرد متلقية لوسائل الاتصال الجماهيرية والإعلانات. من ناحية أخرى، يرى طومسون أن للمؤسسة الإعلامية دوراً حاسماً في تطوير "الديمقراطية المبنية على الحوار،" حيث تعرض بوضوح الأفكار المتباينة كافة؛ وهو ما يؤدي إلى إمكان أن يقوم الأفراد بإطلاق "أحكام منطقية"[16].

يـرى دالغريـن[17] أن عملية تحليل الموضـوعات والبنيـة الاجتماعية للفضـاء العام يجـب أن يعقبهـا تحليـل للمؤسسـات الإعلامية – على سـبيل المثال، الضوابط التنظيمية والملكية ودور التقانة – بالإضافة إلى التمثيـل الإعلامي والفوارق بـين الأنماط المختلفة. اسـتمر هابيرماس في كتابـه الذي أصـدره لاحقـاً[18] في البناء علـى نظريـة أن المعرفة كما طرحت اسـتطرادياً في الحوارات المختلفة تسـلط الضـوء على ما نقوم به وتغذيه. هنا بالضـبط، تكتسب الصـحافة أهميتها القصوى كوسيط ومـروج لمثل هذه الحوارات وذلك من خـلال توحيد الجماهير المتباعدة جغرافياً، وجعلها تبدو وكأنها جمهور واحد ذو مصـالح مشتركة. تشكل المعلومـات إذاً، أساسـاً لقيـام مثل هـذا النوع من الحـوار: حيث يمكن "الوصـول إلى معلومات موثوقة من منظورات مختلفة، وآراء متعددة حول قضـايا السـاعة؛ ومن ثَمَّ يصـبح بإمـكان المواطنين بنـاء آرائهم الخاصـة بهم حول القضايا المهمة، وتهيئة أنفسهم للمشاركة في العملية السياسـية"[19]. المعلومات إذاً، هي حجر الزاويـة في عملية التنوير هذه؛ ويُعَـدُّ تدفق الأخبار "هدية كبيرة، كبيرة"[20]. ومن المتفق عليه على نطاق واسـع أيضـاً، أن المعلومات الحرة هي من الشـروط الأساسـية للعملية الديمقراطية، وأنها السبب الذي حدا ببعض أنظمة الحكم الاستبدادية إلى وضع قيود على التدفق الحر للمعلومات، أو ممارسة احتكار لقنوات المعلومات من أجل إبقاء شعوبها في بوتقة الجهل بما يجري[21].

يفترض أن الجمهـور العربـي (أو مـا يطلـق عليه شـعبياً وصـف "الشـارع" العربي)[22] قد وقع فريسـة سـهلة لغياب الـروح المهنية عند

بعض الصحفيين الذين تنحصر مهامهم في تأجيج الروح العدائية ضد الأمريكيين[23]. يطلق نسيبة وآخرون[24] فرضية أن مشاهدة وسائل الإعلام المعروفة بعدائها للأمريكيين يمكن أن ينتج عنها مثل هذا الموقف تجاه الولايات المتحدة بين المشاهدين العرب. يعكس هذا الرأي موقفاً انتشر بين العديد من الأمريكيين، الذي يرى في "قناة الجزيرة ووسائل الإعلام العربية الجديدة قوة عدائية أساسية تساهم في تأجيج العداء لكل ما هو أمريكي، وتزيد من تعقيدات أهداف السياسة الخارجية في العراق وإسرائيل والحرب على الإرهاب، وقضايا أخرى"[25]. يكمن الخوف هنا من موضوع تشويه المعلومات، أو خرق مبدأ المصداقية والإجماع اللذين يشكلان جزءاً لا يتجزأ من حراك الفضاء العام (العالمي).

يمكن أن ينطبق الرأي نفسه على الصحفيين كميسّرين لمثل هذه الحوارات العامة. يذكرنا زياني[26] على سبيل المثال، بالمشكلات التي تحيط بصحفيي قناة الجزيرة، ومحرريها الذين تم إغلاق مكاتبهم في بعض الدول العربية بعد قيام هذه القناة ببث بعض البرامج الحوارية "الجريئة." في مثل هذه الحالات، يتم النظر إلى الصحفيين بصفتهم أبطالاً يتحملون الكثير من المتاعب في سبيل سعيهم نحو الحقيقة، ويتعرضون لمواجهات قاسية مع السياسيين والحكومات. يعزز هذا من صورة الصحفيين بصفتهم "حراساً" للحقيقة، وهي صورة كرستها تقارير جريئة وحلقات من التحقيقات التي قاموا بها[27]. وهكذا، فكلما ازدادت حدة المشكلات التي يواجهونها، ازداد حجم البريق والشهرة

اللذيـن يتمتعـون بهما، وهو مـا يجعل مصـداقيتهم ترتبط بمدى الكم مـن العداء الذي تكنه لهم أنظمة الحكم القائمة. ولكن إذا لم يسـتطع الصـحفيون لعـب مثل هـذه الأدوار البطوليـة وذلك بسـبب اكتفائهم بترداد التصـريحات الرسـمية، فإنهم يتعرضـون لانتقادات شـديدة، ويقعـون فريسـة الخطاب السـلطوي[28]. ولذلك فنحن نميـل إلى قياس نسـبة المصـداقية الصـحفية بمدى المسـافة التي تفصـل بين وسـائل الإعلام وبين الخطاب الحكومي.

تسـتثير هـذه الصـورة، صـورة الصـحفي الغربـي "كباحـث عن الحقيقة"، وهي صـورة أصـبحت جزءاً لا يتجزأ من ميدان الصـحافة العربيـة كنتيجة لعملية التهجين الجريئة (انظر الفصـل الأول)؛ ذلك أن عملية التهجين في الأنماط الإخبارية والحوارية في الصحافة العربية تبـدو وكأنهـا تثير الحماسـ في الدوائـر الغربية كعلامـة من علامات التنوير والتقدم.

التهجين في وسائل الإعلام العربية

يشـير التهجين عادة إلى الناتج الناجم عن مزج اثنتين أو أكثر من السـمات المختلفة ثقافياً بحيث يصـبح الناتج سمة مدمَجة جديدة مثل موسـيقى الروك اللاتيني، وموسـيقى البوب الصـيني ومعرض الأزياء الإسـلامي[29]. التهجين إذاً هو عملية دمج للسـمات والممارسات الغربية (مـن موسـيقى وأزياء) بالنسـيج المحلي (خصوصـاً في بلـدان العالم الثالث مثل أمريكا اللاتينية والشـرق الأوسـط) الهدف منها هو إعادة

صياغة مفهومات جديدة (حديثة) للهوية الأصلية. تستخدم عملية صياغة هذه الهوية الجديدة أدوات غربية: كاستخدام التقانة المتقدمة في عملية تحرير الأخبار، وتقانات البث المباشر، وحتى الأسلوب واللغة تأثرا بعملية التهجين هذه[30]. فالتهجين لا يمكن دراسته فقط من خلال النصوص والسمات كالموسيقى أو لغة الأخبار، بل يمكن أن يتبدى في الدور الذي يلعبه الوسطاء (كالموسيقيين وقارئي الأخبار والمعلمين).

يؤكد تومولينسون أن التهجين هو النتاج الطبيعي "لذوبان الرابط بين الثقافة والمكان"[31]. إنه الطفو الحر للسمات الثقافية عبر الفضاءات الجغرافية والثقافية، والجاهز لتقديم نفسه والاندماج والمحاكاة بقدر ما تتطلبه الحاجات المحلية. وصف أحدهم هذه العملية بالقول إنها "خليط ومزيج؛ قليل من هذا وقليل من ذاك هو ما يضفي الجِدّة على العالم؛ وهو ما حاولت أن أتمسك به"[32]. ولكن بالمقابل، يمكن أن ينظر إلى التهجين بصفته تهديداً للثقافة الأصلية والتقاليد، وانتصاراً للثقافة المسيطِرة[33]. يذهب كريدي[34] إلى أبعد من ذلك حين يشير إلى الحاجة المتزايدة لدمج عملية التهجين بنظرية الاتصالات من أجل تحليل التأثير الذي تحدثه هذه العملية، أي تبيان ما إذا كان هذا الخليط شيئاً يجب الاحتفاء به، أو ما إذا كان يحمل في طياته هيمنة ثقافية، ويخفي بين ثناياه الشعور بالظلم.

لكن الدور الذي يلعبه المهني الإعلامي يمتاز بأهمية خاصة ضمن سياق هذا البحث. ففي السياق العربي، لا يتجسد هذا الدور ضمن المعايير الماهيوية سواء في الثقافة الأصلية أو الثقافة (الغربية)

المسيطرة؛ بل يظهر كنتاج هجين يصدر عن التمازج بين ثقافتين مختلفتين. تبدو وسائل الإعلام في البلدان النامية وكأنها تضع قيوداً على الحوارات النقدية من خلال "الالتزام الصارم بالخط الرسمي"[35]. يتناول ثوسو[36] مثل هذه الوسائل الإعلامية الهجينة في الهند، حيث تأخذ نشرات الأخبار التلفزيونية أشكالاً أمريكية مناسبة، وتضعها ضمن قوالب هندية. لا يتم تقليد الممارسات الغربية فقط لأنها تبدو "فعالة"، بل لأنها جزء من عملية استيلاد النفوذ وتجميع لرأس المال في الميدان المحلي الأصلي. فعلى سبيل المثال، تحتوي المواد التي تنتجها محطة CNN على "رأسمال ثقافي" أكبر حجماً من الأخبار التي تبثها المحطات المحلية[37]، ومن ثَمَّ فهذه المواد تتمتع بقدر كبير من الشرعية. وإذاً، لا بد لوسائل الإعلام الإخبارية العربية أن تؤقلم ممارساتها من أجل أن تقاس هذه الممارسات بواسطة جهاز القياس الغربي هذا؛ وهكذا يتطور النمط الإخباري نفسه بحيث يعكس هذه الممارسات الجديدة.

يؤكد عبد النبي[38] ضمن توصياته للصحفيين العاملين في الصحافة المكتوبة، أهمية التعامل مع الأخبار الواردة من وكالات الأنباء العالمية بطريقة نقدية، ويقترح تأسيس لجنة متعددة التوجهات للتعامل مع الأخبار الواردة. يؤكد بذلك أهمية المهنيين الذين يتعاطون في مجال الأخبار كوسطاء بين الثقافات والأيديولوجيات، معتمدين في ذلك على مستوى تعليمهم ومعرفتهم بالآخر (أي رأسمالهم الثقافي) من أجل غربلة كل ما يرد إليهم، وتصنيفه حسب فائدته وأهميته ضمن

السياق المحلي. على الصحفيين إذاً، أن يكونوا على دراية تامة بالسمات الثقافية السائدة، وذلك كي يكون بإمكانهم تحديد القيم الكامنة في الثقافات الأجنبية؛ ومن ثَمَّ بناء تمثيل للواقع على محمل أقل قيمة بالنسبة لجمهورهم. يتقاطع ذلك بشكل كامل مع الرأي السائد حول الصحفيين أنفسهم بوصفهم "ناقلي معلومات" بدلاً من كونهم معلقين على الأحداث[39].

بالرغم من كون الغرب المصدر الرئيس للمعرفة والمعلومات، فإن التهجين يمكن النظر إليه بوصفه القدرة على المزج بين أجزاء المعلومات المختلفة وإدخالها ضمن النسيج الرئيس الأصلي. وسيكون بإمكان الناتج الأخير أن يقوم بتحييد الهيمنة الغربية. الصحفي هو أشبه بالنخبة المثقفة بشكل عام؛ فهو مروّج للحداثة: إنه يعرف لغة الآخر، وبإمكانه الكشف عن المعنى الحقيقي للرسائل الخارجية، والقراءة ما بين السطور، وتحديد مدى فائدة الإشارات الضمنية الواردة أو عدمها لمشروع التحديث بالنسبة للثقافة الأصلية المحلية. التناقض إذاً، هو السمة الرئيسة للعلاقة مع الغرب، كمصدر للإلهام في سبيل تطوير المنتج الصحفي وتحديثه. يمكن للصحفيين العرب أن يتماثلوا بشكل إيجابي مع الممارسات الصحفية الغربية، وفي الوقت نفسه، ينأون بأنفسهم سلبياً عن تلك الممارسات بالذات. يعمل هذا التماثل الإيجابي كأساس للشرعية والمصداقية، بينما يكون النأي السلبي تأكيداً على الدور الاستقلالي الذي تلعبه الصحافة ضمن سياقها الخاص بها. أكدت الدراسات الوطنية المتقاطعة[40] إمكان توحيد

مفهوم الصحافة من زاوية التقاطع الثقافي. يبدو أن النموذج الأنجلو-أمريكي هو النموذج السائد كما هو مبين في الاستطلاع الذي أجري بين الصحفيين الأستونيين الذين يقومون بدور "الكلب الحارس"[41]. لقد كان هذا هو المنظور الذي أكد زياني من خلاله أن قناة الجزيرة كنموذج لهذا التهجين "عالقة بين نهجين. فمن ناحية، تستخدم القناة أفضل المهارات التقانية والممارسات الصحفية التي يمكن أن يقدمها الغرب؛ ومن ناحية أخرى، تستخدم هذه الوسائل والممارسات تحديداً من أجل الدفع بآراء وأفكار تتناقض مع الرواية الغربية والتعليقات الغربية على الأحداث والقضايا المختلفة التي تقود الشرق الأوسط إلى مركز الاهتمام الإخباري العالمي، وتشكك في مصداقيتها"[42].

تمثل نتيجة التهجين إذاً، لحظة التقاطع بين مهمتها الداخلية: أي توجيه الجمهور وإلحاقه بركب الأحداث، وتشجيع المشاركة الشعبية من جهة، وتبني الممارسات الخارجية للصحفيين استناداً إلى مدى سلطة هؤلاء في الميدان الصحفي. وهو ما يبينه بشكل تقريبي الرسم 5.1.

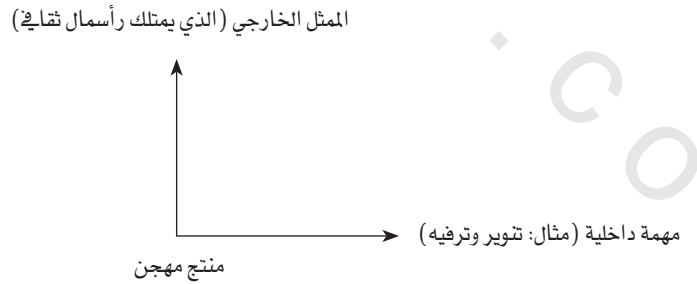

الرسم 5.1 التهجين بصفته تقاطعاً بين الخارج والداخل

يتجسد أحد أهم الانتقادات للمفهوم الهابيرماسي للفضاء العام في الافتراض الضمني الذي يَعُدُّ الهوية تصنيفاً ثابتاً "يتشكل مرة واحدة وإلى الأبد، وذلك قبل الدخول في عالم الفضاء العام"[43]. وبما أن موضوع الهوية يقع في قلب الفضاء العام بصفته موقعاً للحوار العقلاني، فإن من الضروري البحث عن صيغة هوية ليس فقط الجمهور (المشاهد) الذي يشارك في حوارات ذات صلة بالأحداث الجارية، ولكن كما أؤكد في هذا المجال أيضاً، هوية الصحفيين بوصفهم ممهدين لمثل هذه الحوارات.

لا تتناول الفكرة التي طرحها هابيرماس حول الفضاء العام الحقيبة الثقافية الاجتماعية الخاصة التي يحملها أفراد الجمهور قبل أن يبدؤوا في الانخراط في التزاماتهم العامة[44]. يقوم الصحفيون بإجراء مشابه بصفتهم الجهة المنظمة لإنتاج الفضاء العام يشمل الهوية المهنية/المؤسساتية والهوية الفردية المتوضعة في ثقافتهم الأصلية. وهكذا، كما يؤكد دالغرين، فإن "بإمكان الفرد نفسه أن يجمع في الوقت نفسه بين العديد من المواقع (حتى المتناقضة منها) بفضل الهويات المتعددة أو العضويات الجمعية التي ينتمي إليها"[45]، والتي تؤكد أهمية سياسة الهوية كمؤشر رئيس على المشاركة في الشؤون العامة. ومن ثَمَّ يجب على عملية تحليل دور الصحفيين بصفتهم ممهدين و"وسطاء ثقافيين" أن تأخذ في الحسبان الطريقة التي يشكل فيها هؤلاء الصحفيون هوياتهم وتأثير هذه الهويات في عملية الوساطة في الحوارات العامة.

استخدم بيير بوردو[46] عبارة "الوسطاء الثقافيين" للإشارة إلى أولئك المنخرطين في فعل "التقديم والتمثيل"، وهو مفهوم لاقى اهتماماً متزايداً عند الباحثين في مجال الدراسات الثقافية (انظر على سبيل المثال، موضوع الدراسات الثقافية المكرس لهذا الموضوع)[47]. لن تتمحور دراسة الأخبار بعد الآن، استناداً إلى هذا المفهوم، حول نموذج البث البيني لتدفق المعلومات والإنتاج؛ لكنها ستلقي الضوء على دور الصحفيين كوسطاء يقومون بتحديد إنتاج الأخبار واستهلاكها، وربط هذه الأخبار مع بعضها بعضاً. يجب أن يتم النظر إلى هذا ضمن سياق الفكرة السائدة منذ مدة طويلة حول دور الصحفي "كحارس للبوابة"[48]، في الوقت الذي يفترض أن "المواد الثقافية تظهر ببساطة أمام (بوابات) وسائل الإعلام، أو شركات الإنتاج الثقافي التي يمكن أن تسمح لها بالدخول أو تمنعها منه"[49]. لكن هذا يستثني انخراط الوسطاء في عملية البحث عن أنواع معينة من المعلومات ومحاولاتهم شرعنة إنتاجهم الخاص في الصحف العربية، مضفين بذلك الشرعية على المنتج النهائي.

ترتبط الصحافة عادة بالمسؤولية الاجتماعية، كما يميل البحث في مجال الصحافة إلى التركيز على القاعدة نفسها[50]. وعلى الرغم من أنني لا أعارض هذا الرأي، فإن هدفي في هذا المضمار لا يكمن في الرغبة في طرح مبادئ معيارية فيما يخص دور الصحافة. في رأيي، ليست وسائل الإعلام سوى جزء من العلاقة الجدلية والمتعددة الأوجه بين وسائل الإعلام والجمهور، أو بين وسائل الإعلام والمصادر التي

تستقي منها معلوماتها. إذا كان الباحثون يتوقعون قيام الصحفيين بالتحرك ضمن نطاق معين، فإنهم حينها يتعاملون مع الصحافة كتحصيل حاصل، بدلاً من طرح علامات استفهام حول أسس الممارسات الصحفية، وكذلك حول نظرة الصحفيين إلى موضوع الهوية المهنية. يجب أن يتم تحليل المؤسسات الاجتماعية استناداً إلى تأثيرها والنتائج المترتبة عنها، وكذلك استناداً إلى شرعية الأسس التي قامت عليها.

الهوية الصحفية

الصحافة هي عملية فهم للواقع[51]. أصبح من المتعارف عليه الآن النظر إلى الصحافة بوصفها تلعب دوراً محورياً في تسهيل إقامة الحوارات السياسية وتنظيمها، ومن ثَمَّ المساهمة في بناء حياة عامة صحية. ينقل الصحفيون "شكلاً" من أشكال الواقع إلى جماهيرهم ومشاهديهم؛ وهم في ذلك يكرسون واحداً من الدّالّات الرئيسة لهويتهم المهنية باعتبارهم موضع ثقة الجمهور؛ وهو دور أكده منذ وقت طويل جوزيف بيلتزر الذي عَدَّ الصحافة "أكثر المهن روعة وجاذبية... فكل يوم يمر، يفتح أبواباً جديدة للصحفي الذي يتمتع بثقة الشعب ولديه القدرة على مخاطبته"[52].

في قلب هذا الدور، تكمن مهمة نقل الحقيقة، والتأكيد على الموضوعية كمعيار سائد، على الأقل في النموذج الصحفي الأنجلو-أمريكي[53]. وهكذا فقد أصبحت الأخبار مظهراً من مظاهر "ثقافة الحقائق"[54]، حيث يكتسب (الحقيقي) موقعاً متميزاً. يتفق الصحفيون

الأمريكيون اليوم فيما بينهم الآن على أن التدقيق في المزاعم الحكومية هو جزء لا يتجزأ من المهمة الصحفية. يفرض هذا الأمر على الميدان الصحفي العربي ميلاً نحو التمسك بمبدأ الموضوعية في الوقت الذي يتم التأكد من الإبقاء على مسافة آمنة بعيداً عن الذاتية أو إقحام العاطفة في هذا الميدان المهني؛ ومن ثَمَّ الابتعاد عن الصورة النمطية القديمة للصحفي العربي كبوق للقوى السياسية، ومجرد كاتب اختزال لممارساتها.

يشعر الصحفيون بالحاجة الملحة لتقديم أكبر كم ممكن من الحقائق خصوصاً عند تغطيتهم لأنباء الحروب والكوارث؛ كما يمكن أن ينتهوا إلى إعطاء أولوية للإعلان عن جداول وأرقام حتى قبل أن يتم إحصاؤها بشكل رسمي. يؤكد سيتون[55] أن ذلك قد يكون مرده إلى حقيقة أن الأرقام، خصوصاً الكبيرة منها، تجذب انتباه الجمهور إلى حجم الكارثة أو المأساة التي تتم تغطيتها. إضافة إلى ذلك، أظهر التحليل الإخباري الذي أجراه ديك[56] أن بنية الخبر في العديد من الصحف في العالم، كانت تتسم ليس بالاختلاف بل بالتشابه. وهكذا، فإن العاملين في مجال الأخبار منهمكون في عملية "طقس نصي"، استطاعوا من خلاله إنتاج نصوص موضوعية ومحايدة صالحة لاستهلاك القارئ[57]. يُعِدُّ فان ديك[58] استخدام الجداول والإحصاءات نوعاً من الأداة المتكلفة في الأخبار الجادة؛ لأن الجمهور لا مجال لديه كي يقدر أهميتها ومغزاها. وفوق هذا وذاك، تستخدم الأرقام بوصفها رمزاً من رموز الموضوعية في نقل القصص الإخبارية.

تُعَدُّ الموضـوعية في واقع الأمر جزءاً لا يتجزأ من العملية الصحفية من خلال كونها جزءاً من الخبر كمنتَج، ومن خلال كونها أيضـاً جزءاً من الدور الذي يقوم به منتجها:

1 - الموضـوعية بصـفتها جزءاً من عملية الإنتـاج: في معرض التزامهـم بفكـرة الموضـوعية، يتعين على الصـحفيين جمع "معلومات حقيقية"، والقيام بسعي حثيث من أجل وضع اليد على هذه المعلومات. كما يجب عليهم التصرف كشهود عيان على الأحداث، ومن ثَمَّ تأمين مصداقية لمعلوماتهم.

2 - الموضـوعية بصـفتها جـزءاً مـن الناتج الصـحفي: يجب أن يُظهـر نص الخبر (كنمـط) هذه الموضـوعية من خلال الابتعـاد عن مطابقات نصـية معينة ترتبـط عادة بالأنماط الذاتيـة. وعليـه، فـلا ينصـح باسـتعمال ضـمير الأنـا في النصـوص الصـحفية[59]. كما أن على النصـ القيام بعرض وجهتيْ النظر المتقابلتيْن.

3 - الموضـوعية بصـفتها جزءاً من الدور الـذي يقوم به المنتِج الصحفي أو النصي الإخباري: يجب أن يتصرف الصحفيون على أنهم مراقبون محايدون قادرون على نقل الحقيقة.

إضافة إلى ما تقدم، تجدر الإشارة إلى أن مراقبة البيئة السياسية والاجتماعية هي في صـميم المهمة الصـحفية التي تهدف إلى محاسبة المسـؤولين. لكن بعض الباحثين[60] يؤكدون أن وسـائل الإعلام الإخبارية

ازدادت ثقتها بنفسها على حساب غياب الثقة بالسياسيين، والشكوك المتزايدة والسخرية التي يشعر بها الناخبون تجاههم، وهو ما يشجع الناخبين على الابتعاد عن المشاركة في العملية السياسية. يظهر ذلك جزئياً من خلال الزيادة الملحوظة في كم الأخبار السلبية في العقود القليلة الماضية. فبينما كانت وسائل الإعلام الأمريكية في عقد الستينيات من القرن الماضي على سبيل المثال، تستخدم كمنصة للسياسيين للتواصل مع ناخبيهم بشكل مستفيض، فإن العقود التالية شهدت زيادة ملحوظة في الوعي بسلطة الصحافة؛ وهو ما دفع الصحفيين إلى تبني مهام جديدة في مجالهم المهني كمراقبين ومدققين لمدى مصداقية البيانات السياسية ونزاهتها ودقتها[61]. احتل هذا الدور الجديد للصحافة موقع الريادة بسبب التحقيقات حول فضيحة ووترغيت التي شكلت فتحاً جديداً في مهنة الصحافة ودعماً قوياً لهذا الدور الجديد المناط بها. منذ عقد الثمانينيات من القرن الماضي إلى الآن، تحولت الصحافة الأمريكية الناقدة إلى ممارسة انتقادات روتينية للسياسيين الذين ينظر إليهم باعتبارهم أعداء للصحفيين[62]. أضاف هذا الأمر جرعة أخرى من عدم الثقة التي يشعر بها الجمهور تجاه المؤسسات السياسية بالرغم من أن السياسيين كما يؤكد باترسون، استطاعوا تحقيق الوعود التي قطعوها على الناخبين في أثناء الحملات الانتخابية.

تجد سلطة التحقيق هذه قوتها الحقيقية من خلال النأي بنفسها عن السياسة؛ ولذلك فهي تتحول إلى "سلاح تحقيق" بيد الشعب بدلاً من أن تكون أداة بيد الحكومة. أثيرت هذه النقطة في البرامج الحوارية

التي بُثّت مؤخراً بعد التفجيرات التي وقعت في السابع من شهر تموز، يوليو؛ وتحديداً، في المقابلة التي تمت في برنامج Newsnight مع أعضاء في المنظمة الإسلامية المتطرفة التي تطلق على نفسها جماعة (الغرباء). فقد طلبت الشرطة البريطانية من البرنامج تسليمها مادة المقابلة والملاحظات المدونة فيها، وهي بذلك قدمت للصحفيين "جواز مرور أعطاهم حرية الحركة"[63]، من أجل توجيه أسئلة للناس، والتدقيق في سلطة الدولة السياسية. هذه الهوية تشكل الثقل الموازي للرأي القائل بأن الصحفيين ليسوا سوى "دمى تحركهم المصالح"[64].

بعد أن أنيط بوسائل الإعلام الإخبارية الدور المهم المتمثل في القيام بدور الوسيط في الفضاء العام الحديث، فقد بدأت تلك الوسائل بممارسة قدر كبير من السلطة من خلال تقديم شهادات توثّق لأحداث مثل خرق حقوق الإنسان في الدول الأخرى، والحنث بالوعود السياسية، وخرق المعاهدات الدولية المتعلقة بالحروب؛ ومن ثَمَّ فقد قامت بمأسسة فعل المراقبة. وهكذا فقد بدأ الصحفيون يمارسون دوراً جديداً بصفتهم شهود عيان يقومون بتوثيق تاريخي في الوقت الذي يؤكدون شرعية موقعهم كمدققين للواقع السياسي. وكان عمل الصحفيين كصلة وصل بين السياسيين والمواطنين قد عزز من موقعهم كحراس ليس فقط لبوابات المعلومات، بل لبوابات المشاعر أيضاً[65].

ركزت الدراسات التي أجريت مؤخراً على سياسة الهوية داخل المنظومة الصحافية. فقد قام فان زونين[66] على سبيل المثال، بتحليل الهوية الصحفية التي تعمل كنموذج يستند إلى بُعديْن اثنين: الجنسوية

والهدف. يرتبط الأول بالمعارضات الثنائية بين الذكورة والأنوثة)، بينما يتوزع الثاني بين المؤسسة والمشاهدين بصفتهم هدفاً للعمل الصحفي. يرى زونين نتيجة لذلك أن "الهوية التنظيمية" متوضعة بين التوتر الناجم عن الذاتية (الجنس والعمر والتعليم والانتماء العرقي.. إلخ). من جهة، وبين البنى (المهنة والأخلاق والفضاء والمصادر.. إلخ)، ويدعو إلى القيام بتحليل "للهوية" التنظيمية بدلاً من تحليل "الدور" التنظيمي؛ لأن مفهوم الدور "محدود جداً وغير مستقر؛ ومن ثَمَّ فهو غير قادر على الإحاطة بذلك الخليط الخاص المكون من عناصر البنية والذاتية التي تكون في متناول يد الصحفي في أدائه اليومي"[67].

إضافة إلى ما سلف، يقدم كاربينتيير[68] تحليلاً لبنية هوية الصحفيين المهيمنة، والمناهضة للهيمنة مستخدماً نظرية الخطاب التي طرحها كل من لاكلو وموف، التي تعمل على مستويين اثنين: المستوى الاستطرادي والمستوى السياسي؛ حيث إن المستوى الأول يعمل ضمن مجموعة من النقاط العقدية، بينما يعمل الثاني ضمن مفهوم الهيمنة. وإذاً، فإن نقاط التعريف (العقدية) هي التي تحدد شكل الهويات؛ وتتمتع بعض هذه النقاط بموقع متميز يمكنها من أن تدخل في دائرة التطبيع. ولكن في المقابل، هناك هويات معاكسة تعمل بصفتها نقاط تعريف مناهضة للهيمنة.

يضع كاربينتيير الموضوعية في مستوى معين يؤكد من خلاله مفهومي الحقيقة والحيادية، ويربطها بهوية الصحفي المستقلة نسبياً بصفته "كلب حراسة"، كما يقاربها على المستوى الآخر بالتعريفات

الذاتية للصحفي بصفته معلقاً وأيديولوجياً. وهكذا، يستطيع الصحفي (أو أي ممثل آخر في واقع الأمر) أن يتبوأ موقعاً في أي من تلك النقاط من دون أن يهمل بالكلية التحديد المهيمن للهوية المهنية.

إن ما تبينه هذه الدراسات باختصار، هو أن هوية الصحفي تستند إلى جملة من الأدوار ونقاط التعريف الدالة على الموضوعية (أي التفسير الطبيعي والحيادي للأحداث) والذاتية (بصفته معلقاً على الحقيقة ومحققاً من أجل الحصول عليها).

ولكن كيف يتجلى دور الصحفي في النص الإخباري؟ وهل من الممكن عرض تهجين هذين الدورين (دور المراقب الحيادي ودور المعلق على الحقائق) في التحليل النصي لعينة من الأخبار؟ فوق هذا وذاك، هل من الممكن تمثيل الدور الهجين الذي تقوم به وسائل الإعلام العربية ذات البعد القومي كالدور الذي واجهه جانوس في نظرته إلى الخارج العالمي والواقع الداخلي؟ لكي يمكن الإجابة عن مثل هذه الأسئلة، فإنني أطرح دراسة استقصائية للنصوص الإخبارية في محاولة مني لتقديم نموذج عن سياسة الهوية من الناحية العملية. أتبنى بهذا المعنى، إستراتيجية بحثية تتناول أمثلة عملية بدلاً من اللجوء إلى النظريات الكبرى حول هذا الموضوع من أجل الوصول إلى نقاط جديدة[69]. أقدم فيما تبقى من هذا الفصل مصادر تجريبية أستخدمها في دراستي الميدانية هذه، وهذه المصادر هي بالتحديد الصحافة المهاجرة كمثال عن وسائل الإعلام المهجنة. كما أقدم هذا التحليل بتفصيل أكبر، في الفصل السادس من هذا الكتاب.

مَعْلَمٌ صحفي

يبحث التحليل التالي في بناء الهوية في المنتج الصحفي نفسه؛ أي النص الإخباري. يتمثل العامل الحاسم في هذا الصدد في الوسائل التي يتم بواسطتها إنشاء نقاط التعريف، والتأكيد مثلاً على صوت الصحفي أو صوت المؤسسة الإعلامية، إضافة إلى العلاقة بين الصحفيين والمصادر التي يقومون بتغطيتها.

وبدلاً من انتقاء نصوص إخبارية بصورة عشوائية، فإنني أركز على أخبار الحرب. تمثل التقارير الواردة من مناطق الحروب بشكل خاص حدثاً استثنائياً يمكن أن يستخدمه الصحفيون كي "يبثوا هذه التقارير على الهواء مباشرة، وكذلك لكي يتحدّوا القيود المفروضة على ممارساتهم ويفرضون إعادة النظر في تلك القيود. فالريبورتاج الذي يتناول حرباً معاصرة كحرب الخليج على سبيل المثال، يُحكَمُ عليه من خلال مقارنته بتجارب تغطية أخبار الحرب العالمية الثانية أو حرب فيتنام"[70]. بهذا المعنى، "يؤدي مثل هذا الخطاب إلى خلق معايير خاصة بالسلوك المهني يمكن أن تكون مقياساً لتقويم الأخبار اليومية"[71] بالنسبة للصحفيين. قمت باختيار نماذج من النصوص الإخبارية التي نشرت خلال الحرب على العراق سنة 2003، كدراسة ميدانية تمثل دور الصحفيين العرب في هذه النصوص.

يركز هذا التحليل بصورة خاصة على تهجين الأدوار، وكذلك على طبيعة الخطابات كما ظهرت في تلك النصوص الإخبارية التي اقتُبِست من صحف عربية قومية تصدر في لندن كأمثلة عن وسائل الإعلام المهجنة (أي وسائل إعلام المهجر).

تميل الدراسات الحديثة التي تتناول وسائل الإعلام الإخبارية العربية إلى طرح فرضيات حول دور وسائل الإعلام تستند إلى مناقشات نظرية بدلاً من تقديم أمثلة عملية صادرة عن أنماط إخبارية ووثائقية متنوعة[72]. أعتقد أن المساعي الفكرية يجب أن تكون دائمة الحركة بين النظرية والتطبيق، أو بين الأفكار المجردة والأمثلة المادية، كوسيلة وحيدة لتوفير أساس متين لحوارات مستقبلية.

توفر النصوص الإخبارية مادة غنية لدراسة البعد الأخلاقي في نقل الأخبار[73]، وفي تمثيل الهوية الوطنية[74]، أو عند تقديم أمثلة عن الهيمنة الثقافية[75]. من المنطلق نفسه، اخترت أن أقتصر في التحليل التالي على الدور الذي يلعبه الصحفيون كما تبينه النصوص الإخبارية، وكذلك العلاقة بين الصحفيين وبين مصادرهم. هذا لا يعني بأي حال أن التحليل النصي يُعَدُّ في حد ذاته أسلوباً كافياً لكشف سياسة الهوية في أثناء أدائها لمهمتها؛ على العكس من ذلك، إن مثل هذا التحليل يحتاج إلى دعم من قبل النتائج ذات الصلة الصادرة عن ميادين عمل منتجي الأخبار.

إضافة إلى ما تقدم، لا تهدف هذه الدراسة الميدانية إلى إبراز المواقف الإيجابية أو السلبية أو الحيادية تجاه قوى التحالف، كما قامت به بعض الدراسات التي أجريت مؤخراً، على سبيل المثال. أعتقد أن هذا النوع من التدوين يمكن أن يستخدم فقط كوسيلة لتكريس الصورة السلبية التي تصور بها بعض البلدان أو المناطق، من دون التعرض للقضايا التي توضح سبب وجود مثل هذه السلبية في المقام الأول. هذه

النقطة لها أهمية خاصة في الحوارات التي دارت مؤخراً حول الشرق الأوسط الذي تلقى كماً كبيراً من المساعدات من كل من الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي. وكانت إحدى نتائج الهجمات التي وقعت في الحادي عشر من أيلول، سبتمبر سنة 2001 أن حكومة الولايات المتحدة قررت وقف بعض برامج المساعدات، أو تقديمها فقط بشرط إيقاف الحملات المعادية للولايات المتحدة في وسائل الإعلام. ليس هذا هو المكان المناسب للخوض مطولاً في تفصيلات التأثير الذي أحدثته هذه الشروط؛ ولكن يكفي القول إن تدوين ما هو إيجابي أو سلبي أو محايد ربما لا يعكس الكيفية التي يستجيب فيها الجمهور العريض للمواقف السلبية أو الإيجابية في الأخبار.

لنفترض على سبيل المثال، أن تغطية أخبار الولايات المتحدة في وسائل الإعلام الإخبارية العربية هو إيجابي بنسبة 60 في المائة: هل يعني هذا أن غالبية العرب ينظرون إلى الولايات المتحدة وإلى سياستها نظرة إيجابية؟ إن التغطية الإيجابية لمشروعات التنمية في المنطقة مثلاً، يمكن أن تفرض شعوراً إيجابياً تجاه الحكومات العربية في المنطقة. أظهرت دراسات سابقة في واقع الأمر، أنه حتى في الديمقراطيات الغربية كالدانمرك مثلا، لا تستطيع وسائل الإعلام الإخبارية، التي يمكن أن تكون إيجابية حول موضوعات بعينها، بالضرورة التأثير في الجمهور بحيث يقوم هذا الأخير بالتصرف بطريقة مختلفة؛ فقد أظهر جنسن[76] على سبيل المثال، أن غالبية الدانمركيين صوتوا في الاستفتاء ضد مشروع معاهدة ماستريخت التي طرحها الاتحاد الأوروبي بالرغم من أن تلك المعاهدة لقيت صدى إيجابياً في وسائل الإعلام الدانمركية.

يتناول التحليل التالي نماذج من النصوص الإخبارية حول الحرب على العراق (منذ سنة 2003 حتى الوقت الحاضر)، ويهدف إلى عرض الأدوار المتنوعة للصحفيين كما هو مبين في المنتجات الصحفية (أي الأخبار). تظهر هذه الأدوار التي تمت صياغتها فيما تقدم، نوعاً من التهجين أو خليطاً من مؤشرات التعريف (المؤشرات الموضوعية مقابل المؤشرات الذاتية)، وسوف يتوسع التحليل التالي في الحديث عن هذا التهجين للأدوار والخطابات كما هو مبين في النصوص الإخبارية من خلال استعراض نماذج من الصحف العربية القومية المهجنة.

دعوني أبدأ أولاً، بمناقشة مختصرة لظاهرة الصحافة المهاجرة كوسائل إعلامية مهجنة تجمع بين التقانات الغربية والاهتمامات المحلية؛ وسأقوم خلال ذلك بالتركيز على ثلاثة تواريخ خاصة في تغطية الحرب على العراق.

الصحافة المهاجرة بصفتها وسائل إعلامية مهجنة

استضافت لندن وباريس على وجه الخصوص عدداً مما أطلق عليها الصحف العربية القومية. لكن ظاهرة النشر خارج منطقة الشرق الأوسط ليست جديدة؛ لأن الموجة الأولى لهذه الظاهرة بدأت في القرن التاسع عشر[77]، مع فرار الصحفيين من الأوضاع السياسية والاقتصادية في بلدانهم الأصلية. تلت تلك الموجة موجة ثانية في منتصف السبعينيات من القرن العشرين. يظهر أبو زيد[78] في معرض مقارنته بين الموجتين الأولى والثانية أن الموجة الأولى تضمنت

منشـورات تم تهريبها إلى مناطق أخرى، إضـافة إلى منشورات هربت من صراعات دينية وعرقية في بلدانها الأصلية، لكنها بقيت في المنطقة نفسـها، بينما اقتصـرت الموجة الثانيـة على الهجـرة إلى بلدان خارج نطاق المنطقة العربية. بدأت بعض هذه الصـحف العربية التي تصـدر في لندن (وربما في مدن أخرى أيضاً) الآن بالعودة إلى المنطقة العربية في محاولة لتقليص الكلفة العالية لطباعتها ونشرها في الخارج. إضافة إلى ذلك، لم تعد التقانة التي كانت تستخدمها في مراكزها الرئيسة في الغرب ذات جدوى نظراً لانتشار هذه التقانة في العالم كله، بما في ذلك المنطقة العربية[79]، وذلك بالرغم من الرقابة التي لا تزال تمارَس بشكل أو بآخر في الدول العربية.

من بين هذه الصـحف، هناك ثلاث صـحف على وجه الخصـوص احتلت نسـبة عالية من التوزيع، وتمثل منتديات حوارية لقضـايا مهمة تشـغل بال القارئ العربي[80]: وهذه الصـحف هي (الحياة) و(الشـرق الأوسـط) و(القدس العربي). تدخل هذه الصـحف، بالإضـافة إلى النسـخة العالميـة من صـحيفة (الأهرام) ضـمن نطاق هذه الدراسـة الميدانية كنماذج لصـحف النخبة، وتستخدم عادة كمواد مناسبة؛ لأن وسـائل الإعلام الراقية تقدم عـادة تغطية شـاملة للأخبار الخارجية سـواء في النصـوص الإخباريـة وكذلك، التعليقـات عليهـا[81]، ومن ثَمَّ فهي تمثل مصـدراً تنهـل منه أجندة محطات إعلاميـة إخبارية أخرى في المنطقة. إضـافة إلى ذلك، تتمتع الصحافة الراقية بسـمعة طيبة؛ وهذا يشـكل في حـد ذاته دافعاً لمراسـليها كي يقدمـوا تقارير إخبارية

موضـوعية ومتوازنة[82]. تشـكل الصـحافة الراقية أيضـاً عنصر جذب لشـرائح القراء "المفتونين بظاهرة العولمة"؛ ومن ثَمَّ فإن تلك الصحف تميـل نحو اسـتخدام مقاربة أكثر "عولمة" مما تقوم به الصـحف ذات الطابع المحلي؛ ناهيك عن أن الصـحافة الراقية يعمل لديها عادة عدد مـن المراسـلين أكبر بكثير مـن عدد المراسـلين العاملين في الصـحف المحلية.

إضـافة إلى ذلـك، بعض الصـحف المهاجـرة (كالحياة والشـرق الأوسـط) يقـوم بتمويلها رجـال أعمال سـعوديون يقومون بممارسـة سـياسـة العصـا والجزرة في مسـألة التحكم بـالآراء المطروحة على صـفحات هاتين الصحيفتين[83]. أما صحيفة (الأهرام) فتمتلكها شركة مصرية عامة؛ كما أن صحيفة (القدس العربي) هي الصحيفة العربية الوحيدة التي تصـدر في لنـدن، والتي لا يمولها متنفذون سـعوديون؛ وهـذا يجعـل من تحليـل محتويـات هاتين الصـحيفتين مسـألة مثيرة للاهتمام.

إن تناول هذه الصـحف الأربع يشـكل استجابة للدعوة التي أطلقت مؤخراً[84] والمتضمنة إجراء مثل هذه الدراسات المقارنة لكي يماط اللثام عـن أوجه الاختلاف في محتوى وسـائل الإعـلام العربية. ولكن دعوني أبدأ بتقديم عرض مختصـر لكل من تلك الصحف التي تتضمنها هذه الدراسـة الميدانية، مشـيرة إلى تاريخ كل منها، ونوعيـة قرائها والدور الذي تلعبه مثل هذه الصحف في المشهد الإعلامي.

obeikandl.com

صحيفة الحياة

تأسست صحيفة الحياة بعد الحرب العالمية الثانية، وتزامن تأسيسها مع تموضعها في مجمع حديث. في بداية الخمسينيات من القرن العشرين، كانت صحيفة الحياة الأكثر توزيعاً بين الصحف التي تصدر من خارج القاهرة في ذلك الوقت[85]. وتُعَدُّ صحيفة الحياة جنباً إلى جنب مع صحيفة الشرق الأوسط من أكثر الصحف رقياً ونفوذاً في المملكة العربية السعودية. وبالرغم من أن الصحيفتين تصدران خارج المملكة، فإنهما تخضعان لدرجة الرقابة والقيود نفسها التي تخضع لها الصحف المحلية؛ أي أنه من غير المسموح لهما البتة مهاجمة الإسلام[86].

أسس كامل مروة (اللبناني) هذه الصحيفة سنة 1946، لكنه وجد نفسه مضطراً لإغلاقها سنة 1976 على أثر اندلاع الحرب الأهلية اللبنانية. أعيد إطلاق الصحيفة من جديد سنة 1988، وهذه المرة كانت الانطلاقة من لندن بفضل تمويل تلقته الصحيفة من الأمير السعودي خالد بن سلطان[87]. يَعُدُّ محررو الصحيفة أن منع الصحيفة من التداول في بعض الدول العربية من حين لآخر هو مؤشر على استقلالية الصحيفة بالرغم من أن منع تداولها في السعودية على وجه الخصوص يشكل خسارة هائلة بالنسبة للصحيفة[88]. تصدر صحيفة الحياة ملحقاً أسبوعياً يدعى (الوسط) الذي أطلق لأول مرة كمجلة منفصلة سنة 1992[89]، إلا أن حجم التوزيع وكم الإعلان فيها كان أضعف من توزيع صحيفة الحياة أو الإعلان فيها. لم يكن اختيار كلمة (الوسط) كعنوان لهذه المجلة مصادفة أو اعتباطياً؛ فبحسب ما صرح به أحد المحررين

العرب، فإن: "هذا العصر هو عصر الوسطية؛ إنه عصر الوسط بين نهاية نظام عالمي وبداية نظام عالمي جديد... ومن ثَمَّ، لم يعد هناك يمين أو يسار"[90]. تركز هذه المجلة في الغالب على موضوعات سعودية ومصرية، متجاهلة بذلك حتى الموضوعات اللبنانية[91].

صحيفة الحياة معروفة بحياديتها في تناولها للقضايا العربية المهمة، إلا عندما يتعلق الأمر بقضايا تُعَدُّ حساسة بالنسبة لوجهات النظر السعودية. من الناحية التقنية، تُعَدُّ صحيفة الحياة الأقرب من حيث الشكل إلى الصحف الغربية من خلال استعمالها للصور الملونة على سبيل المثال. كما توفر هذه الصحيفة منتدى لأصحاب الآراء المختلفة من إسلاميين وقوميين عرب... إلخ[92].

من خلال مراسلاتي مع صحيفة الحياة، أحطت علماً بأن هذه الصحيفة هي "الصوت الأكثر موضوعية وجرأة في الصحافة العربية العالمية." إضافة إلى ذلك، تهدف هذه الصحيفة إلى جعل نفسها الخيار الأول بالنسبة للعرب الذين يعيشون خارج المنطقة العربية، والخيار الثاني للعرب في المنطقة العربية بعد صحفهم اليومية المحلية.

أما بالنسبة لجمهور القراء الذين تتوجه إليهم هذه الصحيفة، فإن صحيفة الحياة تصفهم بأنهم "من الذكور الناطقين بالعربية الذين تتجاوز أعمارهم عشرين سنة من ذوي التعليم العالي والدخل المرتفع"، والمنتمين إلى النخبة الفكرية والباحثين والسياسيين وما شابه ذلك. تصدر الصحيفة في لندن وتوزع في أكثر من خمس وثلاثين دولة، وتطبع في تسع مدن مختلفة. أغلب الصحفيين العاملين فيها

obeikandi.com

يحملون شهادات جامعية في الصحافة، ويتم الاقتباس منهم بين الحين والآخر في الصحافة الغربية. بلغ حجم توزيع الصحيفة سنة 2002، ما مجموعه 196800 نسخة. تُعَدُّ السعودية السوق الأكبر بالنسبة للصحيفة، حيث يوزع فيها مقدار النصف تقريباً من النسخ المطبوعة منها يومياً (أي نحو 100200 نسخة). أما التوزيع في أوروبا (16200 نسخة) فيعادل كل ما يوزع في بلدان المشرق العربي (نحو 16750 نسخة في كل من لبنان والأردن وسورية). وتُعَدُّ مصر والولايات المتحدة ثاني أكبر سوق لصحيفة الحياة، حيث يوزع في مصر 9500 نسخة وفي الولايات المتحدة 8200 نسخة).

صحيفة الشرق الأوسط

أطلقت شركة الدراسات والتسويق السعودية هذه الصحيفة سنة 1978 من لندن. استخدمت الشركة آخر ما توصلت إليه التقانة حينها من أجل إخراج وطباعة هذه الصحيفة، وقامت بتعيين رئيس تحرير صحيفة الحياة السابق، جهاد الخازن، رئيساً لتحريرها. تصدر هذه الصحيفة في وقت متزامن في العديد من المدن الغربية والعربية مثل القاهرة وبيروت وفرانكفورت ونيويورك ومرسيليا. أما الآراء التي تطرح في هذه الصحيفة فهي متنوعة، ويُزعَم أن عدد قرائها يتجاوز أرقام تسويق هذه الصحيفة[93]. تُعَدُّ هذه الصحيفة، الصحيفة السعودية الأولى التي تصدر في الخارج، كما يزعم أنها الأكثر توزيعاً بين الصحف اليومية العربية القومية، وتحتوي على كم كبير من الإعلانات[94].

أطلقت صحيفة الشرق الأوسط على نفسها لقب "صحيفة العرب الدولية"[95]. قام بتأسيس هذه الصحيفة شقيقان سعوديان، هشام ومحمد الحافظ؛ وكان أبوهما وعمهما قد عملا في المجال الصحفي، وسبق لهما أن أطلقا سنة 1937 صحيفة أسمياها صحيفة (المدينة). حولت الحكومة السعودية الإدارة العامة للإذاعة والصحافة والنشر إلى وزارة الإعلام، وأناطت بها مسؤولية تنظيم ملكية الصحافة. أوصت اللجنة باعتماد أحد حلين: قصر الإعلانات الحكومية على واحدة من كبريات الصحف (صحيفة أم القرى التي تأسست سنة 1924) وصرف تعويض لبقية الصحف من خلال تمويل سري، أو تحديد ملكية الصحف لبعض المنظمات تاركة للحكومة الحق في منح التراخيص للصحف وتعيين رؤساء التحرير. اختارت الحكومة السعودية الحل الثاني الذي تم وضعه موضع التنفيذ سنة 1963[96]. وبعد أن تغيرت قوانين الصحافة السعودية، نقل الأخوان حافظ نشاطهما إلى لندن، حيث قاما بابتياع شركة British Central Press Photo وأصدرا من هناك صحيفة الشرق الأوسط في محاولة منهما لتكرار النجاح الذي حققته صحيفة International Herald Tribune كصحيفة عالمية[97].

يركز المضمون الإخباري في صحيفة الشرق الأوسط على أخبار السعودية ومصر ولبنان والخليج والقضية الفلسطينية. كما أن معظم الكتاب الذين يعملون فيها هم من السعوديين والمصريين، ويليهم كتاب من لبنان والمناطق الفلسطينية[98]. أكد مالكا الصحيفة أنهما يتجاهلان الأخبار عن السعودية بشكل متعمد كي لا يربطا صحيفتهما بوجهات

النظـر السـعودية. يؤكد أبو زيـد[99] أن الصـحيفة تتبنـى وجهة النظر السـعودية بالرغم من محاولتها الظهـور بمظهر المحايد (ومن ثَمَّ فهي تعكس سياسـة السـعودية الخارجية التي تتصـف بالحيادية). يرفض مالكا الصـحيفة وصف صـحيفتهما أو أيٍّ من منشوراتهما بالصحافة المهاجرة، مؤكدَيْن أنهما لم يهاجرا قط من السعودية. أما السبب الذي حـدا بهما لإطلاق الصـحيفة من لنـدن على حد قولهما، فهـو للتأكيد على موقف الصـحيفة المحايد حيال القضـايا العربيـة، زاعمَيْن أن كل نسخة محلية تعكس السياسة الوطنية للبلد الذي تصدر منه. أما هدف المالكـيْن الرئيس فيكمن في جعل هذه الصـحيفة "خيـاراً ثانياً" للعرب الذين يعيشـون داخل العالم العربي وخارجه، وكذلك للسياح العرب في الخارج[100].

صحيفة القدس العربي

أطلقت هذه الصـحيفة سـنة 1989 بـإدارة عبد البـاري عطوان، الفلسـطيني المولـد؛ وليس لصـحيفة القدس العربي سـوى حفنة من المراسـلين في لندن؛ لكنها اسـتطاعت مع ذلك، أن تلعب دوراً مهماً بين المقيمـين العـرب في الخارج[101]. يكمن أحد أهم ملامح هذه الصـحيفة في أنها تكرس يومياً صـفحة كاملة لترجمة مقالات وآراء من الصـحف الإسـرائيلية. لا تتلقى الصـحيفة تمويلاً من السـعودية وهـو ما جعلها (بحسـب رأي ألترمان)[102] أكثر حرية في انتقاد السياسـات الخليجية؛ لكنها تعتمد في تمويلها بدلاً من ذلك على ما تتلقاه من منظمة التحرير الفلسـطينية؛ ومـن ثَـمَّ فإن حريتها تخضـع لضـوابط تمليها سياسـة

opelkandil.com

مموليها. يؤكد أبو زيد مثلاً أن هذه الصحيفة هي بشكل رئيس، ناطقة باسم منظمة التحرير الفلسطينية[103]. لكن غريب[104] يؤكد من ناحيته أن صحيفة القدس العربي تنتقد أحياناً سياسات السلطة الفلسطينية. كما يصفها بالصحيفة "الجريئة" التي تكرس حيزاً كبيراً من صفحاتها للقضايا العربية، وتفسح المجال في صدر صفحاتها لمنتدى يمثل جملة واسعة من الآراء العربية المختلفة التي تمثل قطاعات مختلفة من العرب. ينظر إلى صحيفة القدس العربي عادة، بوصفها "أكثر الصحف العربية عروبية"[105].

صحيفة القدس العربي هي الصحيفة المهاجرة الرابعة التي تطبع في لندن بعد صحيفة، العرب) وصحيفة (الشرق الأوسط) وصحيفة (الحياة). تركز هذه الصحيفة على الموضوعات الفلسطينية وتتوجه إلى الفلسطينيين المقيمين في الخارج، وأيضاً إلى آخرين مهتمين بالشأن الفلسطيني[106]. قال رئيس تحرير هذه الصحيفة مرة، إنه الفلسطيني الوحيد من بين العاملين في أركان هذه الصحيفة؛ ذلك أن فريق العمل فيها يتكون من جنسيات عربية مختلفة. ومن الجدير بالملاحظة أن الصحيفة لا تنشر سوى إعلان أو إعلانين في أي عدد من أعدادها (هذا إذا قامت بنشر إعلانات في المقام الأول)، وهو ما دفع أبو زيد[107] للتأكيد على أن هذه الصحيفة ناطقة باسم منظمة التحرير الفلسطينية التي تساهم في ميزانيتها، ومن ثَمَّ فقد ألقى بظلال من الشك حول استقلاليتها. ولكن، لكي يظهر استقلالية هذه الصحيفة، قام رئيس تحريرها بالإشارة إلى دعوات متكررة تلقاها من وسائل

إعـلام إخبارية غربية مختلفة للتعليق على أحداث وموضـوعات عربية مهمة[108]، مؤكداً أنه ما كان ليتلقى مثل هذه الدعوات لو لم تكن صحيفته تتحلى بالموضوعية[109].

صحيفة الأهرام

فرض الوضع السياسي السيئ في لبنان بما في ذلك الضغط المتزايد الذي مورس على اللبنانيين من قبل العثمانيين في القرن التاسـع عشـر علـى العديد من الصـحفيين اللبنانيين الفـرار إلى بلدان أخرى. هرب بعضهم إلى مصر التي حصلت على الاستقلال الذاتي بعد سنة 1832. أنشـأ أولئك الصحفيون مهنة الصـحافة في مصر، حتى إنهم احتكروا عملية نشـر الصـحف التي ما زال بعضها يصـدر حتى يومنا هذا مثل صـحيفة الأهرام وأسبوعية (المصـور)[110]. أسست الأهرام سنة 1879 بواسطة شقيقين لبنانيين هما الأخوان تقلا[111]. أطلقت بداية كصحيفة أسبوعية تحولت إلى صحيفة يومية سنة 1881. انطلقت في بداية الأمر مـن الإسـكندرية (حتى سـنة 1899) قبـل أن تنتقـل إلى القاهرة[112]. كانت لدى هذين الأخوين الجنسـية الفرنسـية التي أفسحت لهم حيزاً من الحرية لتوجيه الانتقاد للحاكم العثماني لمصـر (إسـماعيل)؛ وهو ما أدى في بعض الأحيان إلى إغلاق صحيفة الأهرام بصورة مؤقتة[113].

لعبت الأهرام منذ نشأتها دور مصدر المعلومات الرئيس حول العديد من القضـايا المحليـة والخارجيـة، ناهيك عـن المقـالات التحليلية حول مختلف الموضـوعات[114]. استناداً إلى الإحصاءات التي جاء بها أيالون[115]،

أثبتت صحيفة الأهرام موضوعيتها من خلال إعطاء أولوية قصوى للتقارير وليس للآراء الأيديولوجية. لكن بحسب أبو زيد[116]، استخدم مؤسسا الأهرام هذه الصحيفة للتعبير عن ميولهما السياسية، كما فعلا عندما غزا الجيش البريطاني مصر سنة 1882 (من خلال الترحيب بالجنرال البريطاني الذي قاد القوات البريطانية لاحتلال مصر).

تنتمي صحيفة الأهرام إلى دار نشر كبيرة، وهي واحدة من الدور الأربع الأكثر نفوذاً في مصر[117]. هناك طبعة دولية لصحيفة الأهرام يعتمد مضمونها على الموضوع الوطني الذي تتم طباعته في مصر. وبحسب رأي غريب[118]، تصدر بعض الصحف العربية طبعات دولية ليست سوى نسخ عن الطبعة المحلية؛ ومن ثَمَّ فهي تخاطب بشكل رئيس المقيمين من الجنسية نفسها. لكن صحيفة الأهرام توزع على شرائح واسعة من العرب المقيمين في الخارج (في الولايات المتحدة وأوروبا تحديداً).

يصل توزيع الأهرام إلى نحو 900000 نسخة، وهو ما يجعلها في المرتبة الثالثة على المستوى الوطني، وفي المرتبة الثالثة والخمسين على الصعيد العالمي[119]. تنشر دار الأهرام للنشر عدداً من الصحف الأخرى باللغات العربية والإنجليزية والفرنسية مثل الأهرام الأسبوعي، وبعض المطبوعات التخصصية باللغة العربية. يشار إلى هذه الصحيفة عادة في الدراسات الإعلامية ووسائل الاتصال المتعلقة بالشرق الأوسط[120]، بحكم أنها تمثل الاتجاه السائد، وبحكم كونها أيضاً "صحيفة مقروءة على نطاق واسع"[121].

تواريخ لا بد من تذكرها في حرب دولية

كما ذكرت آنفاً، يركز التحليل الذي قدمته في الفصل السادس على النصوص الإخبارية التي تناولت الحرب على العراق. اندلعت الحرب في التاسع عشر من شهر آذار، مارس، سنة 2003 (أو في العشرين منه نحو الساعة الرابعة فجراً بتوقيت بغداد). أطلق على العملية الأولى اسم "عملية تحرير العراق" التي استهدفت صدام حسين وبعض القادة العراقيين في بغداد. بعد انقضاء قرابة أسبوع على اندلاع الحرب، بدأت وسائل الإعلام الإخبارية العالمية تتناقل أنباء عن الخسائر المدنية الأولية، التي كان من المفترض أنها تتناقض مع ما كانت تقوله قوات التحالف حول الحرب من حيث كونها "حرباً نظيفة". صدر أول تقرير حول الخسائر البشرية في السابع والعشرين من شهر آذار، مارس سنة 2003، في أعقاب هجمات بالصواريخ على سوق النصر في بغداد. كان أحد التواريخ المهمة في فترة تلك الحرب هو التاسع من شهر نيسان، أبريل، سنة 2003، الذي شهد سقوط بغداد وسيطرة القوات الأمريكية على المدينة. أعلن عن انتهاء العمليات العسكرية رسمياً في الأول من شهر أيار، مايو، سنة 2003 بالرغم من أن بعض المعارك كانت لا تزال تجري حتى ذلك الوقت بين القوات الأمريكية والمتمردين العراقيين.

سوف يركز التحليل التالي على الروايات التي احتلت الصفحات الأولى بما أن الصفحة الأولى يمكن اعتبارها نافذة العرض بالنسبة لأي صحيفة، حيث تعرض فيها الأحداث الجديدة المهمة. وبالرغم من أن الفترة الممتدة من اليوم الأول للحرب (في التاسع عشر من شهر

آذار، مارس 2003) إلى حين الإعلان الرسمي عن انتهائها (في الأول من شهر أيار، مايو، سنة 2003)، تحتوي على كم كبير من النصوص الإخبارية التي يمكن استخدامها في عرضنا هذا، فإنه لا بد لي من تقليص هذا الخيار، ومن ثَمَّ قصر هذا التحليل على نموذج متسق من التواريخ التالية:

التاسع عشر من شهر آذار، مارس، 2003 – اليوم الذي اندلعت فيه الحرب. تتناول المقالات المختارة التهيئة للحرب وأخبار الجنود الأمريكيين الذين يتخذون مواقعهم القتالية على مشارف الحدود العراقية.

السابع والعشرون من شهر آذار، مارس، سنة 2003 – الضحايا المدنية الأولى بين العراقيين. تتناول المقالات المختارة هنا إطلاق النار في الأحياء المدنية والمقاومة التي أبدتها وحدات الحرس الجمهوري.

التاسع من شهر نيسان، أبريل، سنة 2003 – سقوط بغداد. تتناول المقالات المختارة حول هذا اليوم الجهود التي بذلتها القوات الأمريكية لإحكام سيطرتها على بغداد، بعد الضربات الجوية التي وجهتها إلى فندق فلسطين حيث كان يقيم معظم الصحفيين الأجانب.

ركزت صحيفة القدس العربي بشكل عام على الحرب والضحايا التي وقعت بنتيجة تلك الحرب من وجهة النظر العربية. وهكذا فقد تم تقديم الحرب بصفتها الحدث العالمي الأبرز. يظهر تجميع هذه المقالات حركة في الفضاء، تنتقل هذه الحركة بين العراق وأوروبا والولايات

obeikandl.com

المتحـدة. وكان لهذه الأخيرة على وجه الخصـوص حضـوراً بيناً في كل تلك الفضـاءات: في الفضـاء العربي بسـبب الحرب، وبسـبب الجهود الأمريكيـة لمسـاعدة الأكراد في السـيطرة على بعض القرى الصـغيرة في العراق. أما صـحيفة الشـرق الأوسـط، فقد حافظـت على التركيز مـن الزاويـة "العربية"، حيث وضـعت فضـاءها في تصـرف البيانات الصـادرة عن دول الخليج كالسعودية على سبيل المثال، وهي بيانات لم توفر لها مسـاحة كافية في الصـحف العربية الأخرى. حاولت صحيفة الحياة من جانبها تقديم نظرة شاملة للحرب من جميع جوانبها، حيث كان التركيز يتم بشـكل رئيس على الشـعب العراقي العادي، بالإضافة إلى إجراء مقابلات ونقل اقتباسـات من مصـادر غربية وعربية، ومن تقاريـر المراسـلين في بغـداد والمـدن العراقيـة الأخرى. ولكـن بعكس صـحيفتيّ القدس العربي والشـرق الأوسـط، كان الدور المصري يحتل عناوين الصـفحة الأولى من صحيفة الأهرام. ويعزى هذا ببساطة إلى أن هذه الصـحيفة هي بالدرجة الأولى، صحيفة وطنية بعكس الصحف الثلاث الأخرى التي تتناولها هذه الدراسـة والتي تدعي أنها تلعب دوراً قومياً؛ وهكذا فكان من المتوقع أن تعكس صحيفة الأهرام آراء الحكومة الوطنيـة فقط. ولكن يمكن القول إن الصـحافة المصـرية ربما ترى أن مصـر هي قائدة الأمة العربية، وأن تركيزها على الدور المصـري ليس سوى جزء من هذا الخطاب.

خاتمة

كما أكدت في هذا الفصل، لا يُعَدُّ المنطقُ، ضمن المعايير (الهابيرماسية) العالمية، الفكرَ الوحيدَ في الفضاء العالمي العام؛ بل يجب علينا أن ننتبه إلى موضوع المنطق بصفته جملة من القواعد الطارئة في الميدان الذي يتمفصل فيه. ومن ثَمَّ فإن النظر إلى الصحفيين من زاوية التقاطع الثقافي، على أنهم جماعة لها هدف واحد ورؤية موحدة يضع جانباً الفوارق والاختلافات فيما بينهم. وعليه، فإنني أدعو إلى تحليل علاقات السلطة التي تؤثر في الهوية المهنية للصحفيين كوسطاء في الحوارات العالمية.

قمت كذلك بتقصي طبيعة الدور الذي يقوم به الصحفيون من أجل تنظيم المشهد الإعلامي، مستندة في ذلك إلى فكرة التهجين التي تعطي للصحفيين دور الجسر الثقافي بين (الآخر) العالمي وبين الذات المحلية. تستند هوية الصحفيين كما بينت فيما سبق، إلى جملة من الأدوار التي تمزج بين الموضوعية (السرد المحايد) وبين الذاتية (تفسير الحقيقة). سوف تكون هذه الأفكار النقطة التي أنطلق منها بعيداً باتجاه تحليلي النصي للروايات الإخبارية العربية التي ظهرت في الصحف إبان الحرب على العراق.

قدمت فيما سبق، المصادر التجريبية لهذا التحليل، التي كانت تحديداً، عينة مما يطلق عليها الصحف المهاجرة التي تصدر من لندن. أقدم في الفصل السادس، تحليلي بتفصيل أكبر، مُظهرة كيف تعكس النصوص الإخبارية الموقع الذي ينطلق منه الصحفيون العرب بالمقارنة مع نظرائهم الغربيين.